حديث أنثروبولوجي مع الدكتور دونالد كول

حاوره*: الدكتور حسين فهيم**

حصل الدكتور دونالد بول كول (Donald Powel Cole) على درجة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا من جامعة كاليفورنيا، بيركلي. ويعمل حالياً، ومنذ عام 1971، أستاذاً بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. وقد حظيت دراساته الحقلية للبدو في السعودية ومصر، وكتاباته العديدة عنهم بشهرة واسعة في الدوائر الأكاديمية، كما نالت هذه البحوث تقدير المراجعين لها في الدوريات العلمية المتخصصة. حصل الدكتور كول على عدة منح بحثية، كما نال عدة جوائز تقديرية وشرفية. إضافة لذلك، فقد شغل الدكتور كول عدة مناصب إدارية وأكاديمية، كما قدم استشارات لعدد من مؤسسات التنمية الإقليمية والدولية. ويتقن الدكتور كول اللغة الأسبانية التي حصل على درجة الليسانس في آدابها، فضلاً عن إتقانه للغة الإنجليزية بطبيعة الحال، ويمكنه أيضاً التحدث باللغتين الفرنسية والعربية.

حسين:

إنه لمن دواعي سروري أن تحل ضيفاً على مجلة العلوم الاجتماعية في نشرها لسلسلة من المقابلات مع الشخصيات الأنثروبولوجية العربية والأجنبية، وبصفة خاصة أولئك الذين يُعْنَون بدراسة ثقافة ومجتمعات العالم العربي والشرق الأوسط. أعتقد أنك على علم بأن مجلة العلوم الاجتماعية هي مجلة دورية ربع سنوية يصدرها مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت. ولقد سبق للمجلة نشر مقابلتين لشخصيتين مرموقتين وهما الأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد والأستاذ الدكتور طلال أسد. وفي هذه المقابلة معك، سنتناول موضوعات مختلفة عن تلك

* مقابلة أجريت عبر الرسائل الالكترونية.

** أستاذ الأنثروبولوجيا.

التي سبق أن أجراها معك الزميل الدكتور مارك بيترسون (Mark Perterson)، والتي ركزت بصفة رئيسة على عملك الحقلي ومنطلقك النظري ومنهجك التدريسي. وهنا ألفت نظر القارئ أنه باستطاعته الحصول على نص المقابلة مع بيترسون عن طريق الإنترنت: (http://sape.ancegvpt.edu/Cole.interview.hlm).

دونالد:

شكراً يا حسين لاهتمامك بإجراء هذه المقابلة، فعلاقتنا تمتد الآن لأكثر من ثلاثين عاماً منذ أن كنا ندرس سوياً في جامعة كاليفورنيا. وكم استمعت دائماً واستفدت كثيراً من محادثتي معك عن الأنثروبولجيا ومصر والعالم العربي ومسائل أخرى عديدة. أقدر أيضاً هذه الفرصة التي تقدمها لي مجلة العلوم الاجتماعية، فنحن بوصفنا متخصصين في العلوم الاجتماعية أو بوصفنا أنثروبولوجيين نعيش في هذه المنطقة التي نجري فيها بحوثاً، ونقوم أيضاً بالتدريس لطلابها لدينا ولا شك كثير مما يجب علينا أن نقدمه للآخرين لا بوصفنا زملاء لهم فحسب وإنما لإحساسنا بمسئولية المشاركة، ولاهتمامنا بتقدم ورفاهية الشعوب العربية في الشرق الأوسط.

حسين:

ولنبدأ بالترحيب بعودتك من إجازة التفرغ راجياً أن تطلعنا على المكان الذي قضيت فيه هذه الإجازة، وماذا كنت تنوي إنجازه فيها؟

دونالد:

استطعت في إجازات التفرغ السابقة أن أجمع بين الدراسة الحقلية وتحليل مادتها إلى جانب كتابتها للنشر، فعلى سبيل المثال استطعت في إحدى المرات وبالاشتراك مع الزميلة ثريا التركي تحرير كتاب «التغير والتنمية لدى بدو العُنيزة في السعودية». وفي مرة أخرى، حررنا سوياً كتاباً عن «التغير والتنمية في محافظة مرسى مطروح» بمصر. أما بالنسبة للإجازة الأخيرة، فقد أردت أن أقضيها في القاهرة، وأن أجعل منها فرصة للمراجعة والتأمل، وأن أفكر بعمق أيضاً عن مسار عمليات التغير التي حدثت في أوجه الحياة في السعودية ومصر خلال الخمسة والعشرين عاماً الماضية. ومن بين الأشياء الأخرى التي شغلت تفكيري هي الوقوف على أوجه التغير في توجهات البحوث الأنثروبولوجية بالمنطقة وفي تدريس مادتها. ولكن، مع الأسف، وبسبب ظروف عائلية أجبرتني على الذهاب إلى أمريكا مرتين ولمدة طويلة تعطل مشروعي التأملي كما كنت آمله. ومع ذلك، فقد تسنى لي وضع بعض

ملامحه في ورقة بعنوان "Where Have the Bedouins Gone?"، والتي تم تقديمها في الاجتماع السنوي للجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية في نوفمبر 2001. استطعت أيضاً تنظيم حلقة نقاش لاجتماع الجمعية القادم هذا العام (2002) وذلك حول موضوع الدراسات الأنثروبولوجية في الشرق الأوسط بهدف الحوار النقدي عن مآخذها وتوجهاتها الحالية والمستقبلية في ظل الأوضاع الدولية المتغيرة. وبخلاف العمل الأكاديمي، فقد استمتعت بالحياة في القاهرة بعيداً عن مشاغل التدريس والضغوط والمسئوليات الإدارية. قمت أيضاً برحلة إلى سوريا واستمتعت بزيارة جميلة لمدينة دمشق، كما قضيت عدة أسابيع ممتعة ومثمرة فيما بين البحرين والإمارات.

حسين:

شيء جميل ولا شك، وهذا يمهد لما أنوي أن أتطرق إليه معك في حوارنا. ولكن، هل لك أن توضح لنا أولاً كيف كانت هذه الرحلة مثمرة؟

دونالد:

لقد كانت مثمرة بوجه عام، فهذه هي المرة الثانية التي أزور فيها منطقة الخليج، لذا أشعر أنني اكتسبت مزيداً من المعرفة والفهم لمجتمعاتها التي هي على الرغم من محدودية مساحتها وعدد سكانها فإنها مجتمعات توصف بالحيوية والتركيبة الاجتماعية المعقدة. أسهمت الزيارة أيضاً في تقوية الصلات والروابط القائمة مع زملائي في جامعة الشارقة حيث قدمت محاضرة هناك، وكذلك الجامعة الأمريكية في الشارقة والمتحف الوطني في البحرين. إن خبرتي الحقلية – كما تعلم يا حسين – كانت قد تركزت داخل شبه الجزيرة العربية، لذلك فأنا سعيد أن أتيحت لي فرصة زيارة المجتمعات الخليجية مرة أخرى.

حسين:

بالنسبة لأبحاثك في السعودية ومصر وما نتج عنها من إصدار كتابين بالتعاون مع الزميلة ثريا التركي، هل تمت ترجمة أي منهما إلى اللغة العربية؟ وهل قام أحد من الزملاء العرب بمراجعة أي من الكتابين؟ وهل كان لأي منهما تأثير في وضع أو تطوير السياسات الخاصة بالبدو في السعودية أو مصر؟

دونالد:

نعم، تمت ترجمة كتاب لي بعنوان «بدو في عام 1975» ولكنه لم ينشر بعد. أما بالنسبة للكتاب المشترك مع الزميلة ثريا والذي كان قد نشر بالإنجليزية عام 1975،

فقد تمت ترجمته بالتعاون مع الزميلين الدكتور جلال أمين والسيد أسعد حليم، وصدرت الترجمة في لبنان عام 1991، ونعمل أنا وثريا حالياً على ترجمة كتاب مرسى مطروح الذي كان قد صدر عام 1998 باللغة الإنجليزية. أما من ناحية المراجعات، فقد نشرت بعض الصحف في السعودية ومصر تعليقات عن إصداراتنا، إلا أنني لا علم لي بأية مراجعة أكاديمية متخصصة لأي من الكتابين. ومن ناحية الاستفادة من مادة الكتابين في وضع أو تطوير السياسات التنموية الخاصة بالبدو، فأنا لا أعتقد أن شيئاً من هذا قد حدث، ولكن بعض الهيئات البحثية والتنموية الدولية قد كلفتني بتقديم استشارات لهم بخصوص بعض المشروعات التنموية في السعودية ومصر والكويت. أود هنا أن أوضح أن اهتمامي الأساسي أكاديمي، والعمل الاستشاري يثري بطبيعة الحال المادة التدريسية التي أقدمها لطلابي في الجامعة. وإذا كان سؤالك ينطوي على العمل التطبيقي يمكنني القول: إن الثلاثين عاماً التي قضيتها مع طلابي هنا المصريين وغيرهم من العرب، الذين يحتل بعضهم مراكز مرموقة ومسئولة، لها جانبها العملي المتمثل في استمرارية الحوار معهم والتعلم منهم.

حسين:

إن سؤالي يعكس في واقع الأمر ضرورة أن تنال البحوث والكتابات الأجنبية المتخصصة في الأنثروبولجيا أو العلوم الاجتماعية بوجه عام اهتماماً من قبل الدوائر الأكاديمية ودور النشر المحلية إما بالترجمة أو – على الأقل – بالتعليق النقدي لها. أذكر هنا مثلاً بعض الجهود في هذا الإطار، ولكنها جهود محدودة للغاية في بعض الدوريات المتخصصة مثل «مجلة العلوم الاجتماعية» أو المجلات الثقافية مثل «البحرين الثقافية». لذا فإني أدعو إلى التوسع في هذا الاتجاه ليصبح جزءاً رئيساً في العمل الأكاديمي المحلي، وليشكل مصدراً معرفياً ومجالاً للحوار التقدمي. دعوتي، كما تعلم يا دونالد قديمة وفحواها أن على الباحثين، محليين أو أجانب الجمع بين المنظورين الخارجي والداخلي في دراسة المجتمعات الإنسانية بهدف الفهم الأعمق والأشمل، إننا في حاجة ماسة الآن أكثر من أي وقت مضى إلى تبني هذا المنظور المشترك. (القارئ الراغب في معرفة المزيد حول هذه النقطة ندعوه إلى الاطلاع على كتابنا التالي: "Indigenous Anthropology in non-Western Countries" Caroline Academic Press, 1982).

دونالد:

أتفق معك تماماً، فمن المؤكد أن الجماعات التي يدرسها الأنثروبولوجيون وغيرهم لها الحق في أن تُحَاط علماً بنتائج هذه الدراسات سواء أجراها باحثون أجانب أو محليون، فهناك حاجة ماسة إلى عرض نتائج الدراسات الأجنبية التي أجريت عن ثقافة العالم العربي أو تقديم ترجمة عربية كاملة لمختارات منها. ولا يخفى عليك أن بعض الدراسات الأجنبية عن المنطقة قد صدرت إما باللغة الإنجليزية أو الفرنسية والتي لم يتم ترجمتها في حدود علمي، مدركاً أن عملية الترجمة مكلفة إلا أنني أعتقد أن هناك بعض الجهود الحالية في هذا الاتجاه، وعلى الباحثين المحليين بذل مزيد من الاهتمام والجهد، ويتعين أيضاً – في رأيي – على الهيئات المعنية بتقديم المنح البحثية أن تخصص جزءاً منها لأعمال الترجمة، فالترجمة العربية للدراسات الأنثروبولوجية الأجنبية عن المنطقة سوف تُثري العملية التدريسية وسوف تُزوِّد القراء المعنيين بالمزيد من المعرفة عن مجتمعاتهم وثقافاتهم من منظور الآخر. أود أن أشير هنا أن الجيل الحالي من الباحثين الأجانب يبدو أنه على قدر أكبر من الجيل السابق في معرفتهم باللغة العربية تحدثاً وكتابة أيضاً، وذلك على عكس الوضع معي مثلاً، حيث تعلمت اللغة العربية من خلال ممارستي للعمل الحقلي. أما بخصوص مسألة المنظور الأجنبي/المحلي في الدراسات الأنثروبولوجية أو الاجتماعية عامة، فأنا أراه مهماً ويحتاج إلى مزيد من الدعم، وقد تبنيت أنا شخصياً هذا الاتجاه كما هو واضح في عملي المشترك مع الدكتورة ثريا التركي، وهي سعودية. ولا تنس أيضاً أنني قد اشتركت معك في الماضي في تحرير وتقديم ورقة عن التنمية الزراعية. وأود أن أضيف أيضاً أن على الباحث الأنثروبولجي ألا يقوقع نفسه في إطار تخصصه التقليدي، بل عليه أن يتخطى ذلك مستفيداً مما تقدمه العلوم الأخرى من مفاهيم ومناهج وموضوعات وثيقة الصلة بحياة الإنسان اليومية. ولقد استفدت أنا شخصياً من التعاون مع زملاء في الجامعة وخارجها من خارج تخصصي، وأود أن أرى أيضاً الأعمال الأنثروبولوجية تحظى باهتمام مماثل من التخصصات الأخرى.

حسين:

كلام طيب، ولكن لي سؤال بوصفك عضواً إدارياً في قسم الشرق الأوسط بالجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية وهي جمعية تضم أعضاء من شتى بلدان العالم وليست مقتصرة على الأمريكيين؛ وكذلك لاعتزامك تنظيم حلقة نقاش في الاجتماع

القادم لها عن توجهات البحوث الأنثروبولوجية في الشرق الأوسط كما سبق أن ذكرت، فهل لك أن تذكر لنا بعض أفكارك حول هذا الموضوع؟ وبالمناسبة فقد سبق لمجلة البحرين الثقافية (عدد رقم 22/ أكتوبر 1991) نشر ترجمة لوجهة نظر الزميل الأنثروبولوجي الأمريكي المعني بدراسات العالم العربي والشرق الأوسط ديل أيكلمان (Dale Eickeiman) حول هذا الموضوع، وكما وردت في كتابه "The Middle East and Central Asia".

دونالد:

لا أعتقد أن عندي إجابة وافية عن هذا السؤال، ولكن عليَّ أن أقدم لك بعض الملاحظات، أولها أن قسم الشرق الأوسط في هذه الجمعية صغير جداً مقارنة بالأقسام الأخرى المعنية بمناطق مثل أمريكا اللاتينية أو الشرق الأقصى، وهذا القسم حديث أيضاً. هناك حالياً شعور بالإحباط لدى كثير من الأنثروبولوجيين المتخصصين في دراسات الشرق الأوسط لما يجري في المنطقة من أحداث عنيفة، إلا أن أصواتهم المعارضة لا تلقى ترحيباً من واضعي السياسة الخارجية الأمريكية وبعض المفكرين. هناك ولا شك حاجة إلى توسيع دائرة المراكز والأقسام المعنية بدراسات العالم العربي والشرق الأوسط في الجامعات الأمريكية، كما أن هناك وللأسف نقصاً وظيفياً واضحاً في هذا التخصص. أما بالنسبة لما جاء في مقدمة كتاب إيكلمان فإني أختلف معه مثلاً في اعتبار أشخاص مثل إدوارد لين (Edward Lane) أو ويسترمارك (Westermark) أو روبرت سميث (Robert Smith) أو ديكسن (Dixon) وغيرهم أنثروبولوجيون بالمعنى المتعارف عليه، فهم في نظري ليسوا إلا رحالة ومستشرقين، وهم يمثلون مرحلة سابقة على العمل الأنثروبولوجي المتخصص الذي بدأ في واقع الأمر في أوائل الستينيات بدراسات وكتابات أشخاص مثل روبرت فيرنيا (Robert Fernea) ولويز سويت (Louise Sweet). بدأت هذه المرحلة بدراسات إثنوجرافية وصفية التزمت فيها بالقواعد والأصول الأخلاقية التي وضعتها الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية.

حسين:

إن حالة الإحباط التي أشرت إليها بالنسبة لبعض الأنثروبولوجيين الأمريكيين المتخصصين في دراسات الشرق الأوسط تعكس في رأيي فشل معظم هذه الدراسات في تقديم صورة واقعية محايدة عن هذه المنطقة. لقد قرأت لبول كينيدي

(Paul Kennedy)، أستاذ التاريخ بجامعة Yale وهو – كما تعلم – باحث وكاتب له شهرته الكبيرة قرأت له عبارة وردت في تعليقه على الكتاب الجديد لبرنارد لويس (Bernard Lewis)، وهو من أشهر الباحثين في تاريخ الشرق الأوسط، «أنه على الرغم من أهمية مادة الكتاب فإنها لم تساعد شخصاً مثل وزير الدفاع الأمريكي رامسفيلد (Rumsfeld) على تفهم أسباب ما حدث لأمريكا في سبتمبر». إن الزائر لكبرى مكتبات بيع الكتب في واشنطن يجد الآن جزءاً مخصصاً تُعْرَض فيه الكتب والإصدارات عن منطقة الشرق الأوسط والإسلام استجابة لشغف الأمريكيين بقراءة شيء عنها وعن هذا الدين، إذ إن الجهل بهما شائع وصورتهما الخاطئة والمختلفة ماثلة في الأذهان. ومع الأسف، لا يجد المُطَّلع على ما تعرضه هذه المكتبات سوى إصدارات كان قد صدر معظمها منذ سنوات عديدة ككتاب «القافلة» ومؤلفه كارلتن كون (Carlton Coon) وكتاب «العقل العربي» ومؤلفه – كما تعلم – رافائيل باتاي (Raphael Patai). ذلك إلى جانب عدد من كتابات الرحالة القدامى وألمع الصحفيين بالمنطقة. وكذلك المذكرات الشخصية لبعض الشخصيات، وأما عن الكتب الخاصة بالإسلام يجد الزائر كتباً لمؤلفين يُعرف عنهم عداؤهم للعرب والمسلمين مثل كتاب "Why 1 am not a Muslim" وكتاب "Sword Islam". أما الأعمال أو الكتابات الأنثروبولوجية المتخصصة فلم يعرض منها إلا كتاب أو كتابين وأحدهما "Islam observed" ومؤلفه – كما تعلم – جيرتز Geertz والذي يعرض فيه الممارسة الإسلامية في المغرب مقارنة بأندونيسيا. وسؤالي الآن هل تجد الأمر مماثلاً أيضاً للوضع في أوروبا في حدود علمك؟ إن كثيراً من زملائي هنا يرون – وأنا أوافقهم – أن أوروبا تفهم العرب ومجتمعات الشرق الأوسط أكثر من أمريكا، وأن الدراسات الأوروبية الخاصة بالمنطقة تَتَّصِف بالعمق والمعرفة أكثر من مثيلتها الأمريكية. ما رأيك في ذلك؟ ولعل مقارنة مثلاً بين كتابات مايكل جلسنان (Michael Gilsenen) البريطاني وديل إيكلمان الأمريكي عن الإسلام قد توضح لنا بعض الاختلاف في توجهاتهما الدراسية أو محتوى مادة كتاباتهما.

دونالد:

أنا نفسي صدمت عندما وجدت أن الأدبيات التي تُعْرض في أمريكا بعد أحداث سبتمبر لا زالت تُقدم الصور البالية والانطباعات المتحيزة ضد المنطقة وشعوبها، فهي تعيد اجترار المواقف الاستعمارية القديمة. وفعلاً لقد طرح الناشرون والمكتبات كثيراً من المؤلفات السطحية والمتحيزة ضد الثقافة العربية التي أراد الأمريكيون

تعرُّفها لجهلهم بها من قبل. هناك مع ذلك جهود كبيرة تُبْذَل حالياً في أمريكا وأوروبا من قبل بعض الباحثين المتخصصين الذين يحاولون الاتصال بالصحفيين وحثهم على تقديم إعلام متوازن عن المنطقة وشعوبها. هناك أيضاً قنوات اتصال فُتِحَت على شبكة الإنترنت من قبل عدد من الباحثين والمفكرين، إلا أن تأثير ذلك لا يزال محدوداً، وحتى الجمهور المتحمس لقضايا العرب والدارسين للإسلام لا يزال أيضاً محدوداً للغاية. ومع ذلك فإن أصوات هؤلاء بدأ يرتفع شيئاً فشيئاً ويسرني أن أجد معظمهم من الأنثروبولوجيين.

أما بالنسبة لأوروبا، فأنا لا أعرف حقيقة الوضع هناك، إلا أنني أعتقد أن الأوروبيين يفهمون الشرق الأوسط أفضل من الأمريكيين لاعتبارات جغرافية وتاريخية. إن لدى الأوروبيين أيضاً كثير من المراكز المتخصصة في دراسات الشرق الأوسط التي يرجع تاريخها إلى أكثر من مائة عام. كذلك نجد أن شعوب الشرق الأوسط على اتصال أوسع نطاقاً ومعرفة أوثق بالمؤسسات التعليمية بأوروبا. لذا لا أستغرب مقولة تَفَوُّق أوروبا على أمريكا في تَفَهُّم واقع شعوب ومجتمعات الشرق الأوسط وفي التعامل معها. وأود أن أذكر في هذا السياق أن عدداً من الباحثين الأوروبيين المرموقين قد نزحوا إلى الولايات المتحدة وانضموا إلى أقسام دراسات العالم العربي والشرق الأوسط بها، وربما يكتسب الجيل الصاعد من الباحثين الأمريكيين خبرة مشتركة يتفوقون بها على زملائهم الأوروبيين. أما بخصوص دراسات جلسنان وإيكلمان عن الإسلام، فأنا لا أعرفهما معرفة شخصية، ولكن أعتقد أنه إذا وُجِدَ أي تباين بينهما فإن ذلك يُرَدُّ في المقام الأول إلى طبيعة المدخل الدراسي والخلفية الأكاديمية لكل منهما. فجلسنان البريطاني متأثر ولا شك بالأنثروبولوجيا الاجتماعية التي تتخذ عادة من «المجتمع» أو «البناء الاجتماعي» مدخلاً للدراسة، في حين أن إيكلمان متأثر بالمدخل الثقافي وخاصة كما يراه جيرتز من حيث التركيز على دراسة الرموز والمعاني والتصورات الثقافية المحلية والأشكال المتنوعة للممارسة الإسلامية في الحياة اليومية للمجتمعات موضع الدراسة. ومن الطريف أنني كنت قد سألت طلبتي في الجامعة تقديم آرائهم بصدد تناول إيكلمان لدراسة الإسلام في كتابه «الشرق الأوسط ووسط آسيا» الذي سبق أن أشرت إليه، وجاءت تعليقاتهم تُعَبِّر في معظمها عن ارتياحهم لتوضيحه التنوع المذهبي القائم بين الشعوب الإسلامية وإن كانوا قد أخذوا عليه التركيز على عرض مذاهب الأقليات.

حسين:

حسناً يا دونالد، إشارتي إلى كتابات الزميلين جلسنان وإيكلمان لم يقصد منها التفضيل بينهما مطلقاً. فكلاهما باحثان يُشهد لهما بالعمل المنهجي والكتابات الجيدة. وطبعاً إن وجد اختلاف فغالباً يرد – كما ذكرت – إلى طبيعة مشكلة الدراسة ومدخلها النظري ومنهجية عرض مادتها. أود أيضاً أن ألفت نظر القراء أننا عندما نتحدث عن الدراسات الأوروبية للشرق الأوسط فهي لا تتصف بالتجانس أو أنها تسير جميعها على نهج واحد، بل الأمر عكس ذلك تماماً، فالدراسات البريطانية غير الفرنسية أو الألمانية، وهناك أيضاً تبايناً بين الأوروبيين في صلاتهم بمجتمعات الشرق الأوسط. فبعضهم مثلاً لم يهتم بها إلا حديثاً كما هو الحال بالنسبة للسويد والدنمارك. وفي هذا الصدد يذكر الأنثروبولوجي الدنماركي أولي هيرس (Oly Herees) في مقال نشرت ترجمته مجلة البحرين الثقافية (عدد أكتوبر 1999) أن تدفق المهاجرين من بلدان الشرق الأوسط للعمل والإقامة في الدنمارك كان أحد الأسباب القومية للاهتمام بإجراء دراسات عن المهاجرين والجهات التي وفدوا منها. إن حركة الهجرة المتزايدة هي جزء من العولمة التي يرى عالم الاجتماع الشهير ومدير مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية أنطوني جيدينز (Anthony Giddens) أنها تُحدث ولا شك تغيرات جوهرية في الحياة الاجتماعية والثقافية لشعوب العالم أجمع. والآن، هل تعتقد أن العولمة في صورها العديدة سوف تؤثر إلى حد كبير في تشكيل أو إعادة صياغة توجه الأبحاث في الشرق الأوسط حاضراً ومستقبلاً؟

دونالد:

تتضمن العولمة في صورها العديدة حركة الناس والموسيقا والرياضة العالمية وغيرها، وهو موضوع يحتاج للدراسة وتتبع تأثيراتها. وأذكر أن «ستيفن كاتون (Steven Caton) وهو أحد تلاميذي من جامعة شيكاغو عندما كنت زائراً بها، يُعد حالياً ورقة بعنوان "Where is the Middle East?"، ويتساءل فيها إذا كان الشرق الأوسط لا يزال ضمن حدوده الجغرافية أم أنه قد أصبح الآن مُغترباً في هذا العالم الواسع الأرجاء. هناك دراسات عديدة عن الهجرة السكانية الضخمة وعلى نطاق عالمي، ولدينا الأمثلة عن هذه الهجرة في الخليج. علينا أن نرى كيف يتناول الباحثون هذه الظاهرة وتداعياتها في ظل العولمة والتغيرات الدولية الحالية والمستقبلية. وأنا شخصياً أميل إلى توجه آخر، وهو ألا تأخذنا ظاهرة الهجرة بعيداً عن دراسة ظاهرة الاستقرار. بمعنى أنه إذا كان هناك أفراد يهاجرون، هناك أيضاً

أفراد لا يهاجرون بل يقضون حياتهم بأكملها داخل قراهم أو في مدنهم ومع أسرهم. هناك أيضاً كثيرون لا يستمعون إلى موسيقا «الرجي» أو يأكلون عند ماكدونالد مثلاً، هؤلاء الناس هم خارج حركة العولمة. وأخشى مع هذا الاهتمام الكبير بمسألة العولمة التي أصبحت بمثابة موضة البحوث محلياً وعالمياً أن يضيع الاهتمام بالناس العاديين المستقرين في ديارهم والمعتمدين على دخولهم وليس على ما يرد إليهم من العمالة الخارجية. إن دعوتي باختصار هي عدم نسيان المحلي وراء الاندفاع نحو العولمي في بحوثنا الأنثروبولوجية. وعلى كل حال وحتى بالنسبة لدراسات مهاجري الشرق الأوسط إلى الخارج فإني أجد تقصيراً كبيراً في عدم إجراء دراسات عن العرب الذين هاجروا مثلاً إلى أمريكا اللاتينية أو جنوب الصحراء الأفريقية، ونفس الشيء أيضاً بالنسبة لليونانيين أو الإيطاليين الذين كانوا قد هاجروا من أوروبا واستقروا في مصر إبان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والأمر ينطبق أيضاً على الفرنسيين الذين هاجروا إلى تونس أو الجزائر. لقد كانت هذه الهجرات جزءاً من العولمة القديمة والنظام الاستيطاني الأجنبي في المجتمعات العربية. كان قد بدأ أنثروبولوجي سويدي اسمه «توماس جيرهولم» (Thomas Gerholm) دراسة عن الجاليات الأوروبية في الإسكندرية إلا أنه توفي قبل أن يكمل هذه الدراسة مع الأسف.

حسين:

على أية حال، فكما تعلم أن ظاهرة العولمة مسألة معقدة تتباين حولها الآراء، وأنها لم تتبلور بعد من ناحية تأثيراتها الثقافية على الشعوب، ولذا فهي موضوع يستدعي مزيداً من الحوار والدراسة لأوجهها العديدة وتداعياتها المركبة. ولعلني أوضح للقارئ هنا أننا يجب ألا ننظر إلى العولمة باعتبارها حركة ذات اتجاه واحد؛ أي من الغرب إلى باقي العالم، فهي حركة ذات اتجاهين. فالمهاجرون من المشرق إلى المغرب لهم تأثيرهم أيضاً إذ إنهم يحملون معهم أفكاراً وتقاليد وسلوكيات خاصة بهم، ولعل ذلك واضح في التأثير الذي أحدثه المهاجرون الأفارقة على المجتمع الفرنسي. والآن يا دونالد، أنتقل بك إلى موضوع آخر غير توجهات الدراسات الأنثروبولجية عن الشرق الأوسط في ظل العولمة وليكن خبرتك التدريسية، هل لك أن تحكي لنا عن هذه الخبرة بصفة عامة، وعن تدريس مادة الأنثروبولوجيا الثقافية بصفة خاصة.

دونالد:

الأنثروبولوجيا الثقافية متطلب جامعي، وهو مدخل عام للأنثروبولوجيا، وتدريس الأنثروبولوجيا في مصر يشكل تحدياً كبيراً في واقع الأمر، لأن الأنثروبولوجيا لا تزال غير معروفة لدى كثيرين حتى في الدوائر الأكاديمية والعلمية المحلية، والعالمية أيضاً. فالفكرة السائدة عن هذا الفرع من الدراسة اهتمامه بالآثار القديمة وتطور الإنسان والحفريات وما شابه ذلك. وعلى أية حال، فإن مادة تدريسي للأنثروبولوجيا الثقافية تختلف من عالم إلى آخر لاهتمامي بربط موضوعاتها بما يحدث من تغيرات وأحداث في عالمنا المعاصر. وبصفة عامة، فأنا أركز على أهمية المجتمع والثقافة في تشكيل سلوكياتنا وفي فهمها أيضاً. أوضح لطلابي أيضاً كيف أن الأنثروبولوجيين يناهضون العنصرية، وينظرون إليها باعتبارها موقفاً اجتماعياً يُرَدُّ إلى الثقافة وليس إلى عوامل أو صفات أو ملامح بيولوجية. وهذا الموقف الأنثروبولوجي يَجِدُ ترحيباً من الطلاب، ويساعدهم على التكيف والتسامح في صِلاَتِهم بالشعوب الأخرى أو حياتهم في مجتمعات وثقافات مخالفة لهم. وإلى جانب مسألة «العنصرية» أتناول في تدريس مفهوم النوع (Gender)، وهو موضوع جديد لم نتطرق إليه إلا حديثاً جداً. ومن خبرتي وجدت أن طلابي يتفهمون جيداً موضوعات القرابة والزواج وما يندرج تحتهما من أنماط وتقاليد، وذلك على عكس الطلاب الأمريكيين الذين يجدونها صعبة الفهم. وإلى جانب هذه الموضوعات أهتم أيضاً بتضمين المادة التدريسية مسألة الاستعمار والاستيطان الأجنبي وتأثيرهما السلبي على ثقافات الشعوب المستعمرة. ومن الطريف هنا أن أذكر أن الأنثروبولوجيا التي كانت قد بدأت مرتبطة بالحركة الاستعمارية للغرب هي أكثر العلوم الاجتماعية الغربية الآن مناهضة لها في جميع صورها القديمة والحديثة على حد سواء. وفي إيجاز، أقول: إن الرسالة المهمة التي أحرص على تقديمها في تدريسي للأنثروبولجيا عبر السنوات هي تفهم وتقدير التنوع الثقافي والاجتماعي لشعوب العالم، وأن دراسة الآخر تفيد في فهم الذات ودلالتها. هذا فضلاً عن أهمية مفهوم «الثقافة» في حياتنا اليومية لأن الثقافة مكتسبة وليست قدراً بيولوجياً حتمياً يصعب علينا تغييره.

حسين:

إن اهتمامي بالسؤال عن تدريس مادة الأنثروبولوجيا الثقافية بوجه خاص يُرَدُّ إلى أن الأمر يقتضي أن تضيف إلى الأساسيات من المفاهيم والمناهج

والموضوعات التقليدية ذات الصلة بالنظم الاجتماعية ما هو جديد ومتصل بقضايا عالمنا المعاصر وتداعيات حياتنا المتغيرة، فقد اطَّلعت على كتاب صدر حديثاً (يونيو 2002) بعنوان «الأنثروبولوجيا والعولمة: الأنثروبولوجيا الثقافية في القرن الحادي والعشرين» (Anthropology and Globalization: Cultural Anthropology in the 21st Century)، ورأيت أن مؤلفه (تيد ليولين Ted Lewellen) قد ضَمَّنه موضوعات جديدة ومخالفة إلى حد كبير لما درج على تقديمه في الكتب الدراسية لهذه المادة. وأذكر من بين هذه الموضوعات: «الهجرة المصرية، القرويون في عالم التمدن، الهوية، والعنصرية.... إلخ» أتفهم طبعاً أنه لا يمكن تدريس كل هذه الموضوعات، ولكن الفكرة أساساً هي تقديم الجديد والمناسب أو المتصل بأوضاع العالم المعاصر. القصد هنا أيضاً جني ثمار خبرتك التدريسية لهذه المادة التي أدرجت على نطاق واسع الآن بوصفها أحد المتطلبات الجامعية في كثير من الجامعات العربية. وأسألك الآن هل وجدت فرقاً في التدريس للطلاب العرب والطلاب الأمريكيين في الفترات التي عملت فيها أستاذاً زائراً في بعض الجامعات الأمريكية؟

دونالد:

أولاً... أتفق معك يا حسين من ناحية ضرورة طرح موضوعات جديدة سواء أكان ذلك في تدريس الأنثروبولوجيا الثقافية أم إجراء البحوث الأنثروبولوجية عامة. ومن المهم أيضاً أن يتحقق نوع من التوازن بين الخبرة والمعرفة القديمة والإثارة التي تتضمنها الموضوعات الجديدة ذات الصلة بعالمنا الجديد العولمي والمتعدد الثقافات. أما من ناحية الطلاب، فأنا أعتبر طلاب الجامعة الأمريكية (ومعظمهم من المصريين إلى جانب أعداد أخرى من منطقة الخليج وأفريقيا وآسيا) على مستوى لا يقل مطلقاً عن طلاب أرقى الجامعات الأمريكية، وهم – في رأيي – يشكلون أعز ما تملك الجامعة الأمريكية بالقاهرة. فطلابي يتقنون اللغات الأجنبية وهم على دراية واسعة بالعالم الخارجي تَفُوق الطلاب الأمريكيين.

حسين:

شهادة طيبة هذه لطلابك يا دونالد سوف يسعدون بها. ولننتقل الآن إلى عملك الاستشاري وأسألك أن تعطينا فكرة ولو موجزة عن هذا الجانب، وأن تخص بالذكر عملك الاستشاري بالكويت.

دونالد:

لقد أتيحت لي فرصة العمل بوصفي استشاريا للجانب الاجتماعي لعدة مشروعات تنموية في السعودية ومصر. وكان العمل في معظم الحالات مشتركاً مع زملاء من تخصصات أكاديمية وفنية متنوعة كالاقتصاد والهندسة وأبحاث التربة والمياه. اختص أحد هذه المشروعات بدراسة الموارد المائية والتنمية الزراعية بالسعودية، وتناول مشروعاً آخر التنمية السياحية والاقتصاد المحلي في مدينة الأقصر الأثرية بمصر العليا. أذكر أيضاً مشروعاً ثالثاً خاصاً بتنمية منطقة بحيرة المنزلة بمصر. إن العمل في هذه المشروعات وغيرها كان مفيداً ومثَّل في واقع الأمر تحدياً كبيراً لي بوصفه عملاً يشترك فيه أفراد من عدة تخصصات، ولذا فقد تعلمت منه كثيراً من الناحية العملية. ومع الأسف، فقد وجدت هذا العمل محبطاً في نهاية الأمر، وسبب ذلك أن عملاً جاداً قد أنجز، وأن تقارير فنية قد أُعدت ونوقشت مع المسئولين إلا أنها لم تُجْدِ نفعاً ووضعت جانباً، على الرغم مما بُذِل فيها من جهد ووقت وتكلفة. أما بالنسبة للكويت، فكانت استشارة تخص معهد الأبحاث الكويتية، وكانت عن المشروعات الترفيهية في أراضي بَر الكويت، قدمت هذه الاستشارة في عام 1986 ولمدة قصيرة، أعددت خلالها مشروع دراسة لاستقصاء أفكار الناس عن طبيعة تأثيرات المشروعات الترفيهية أو نتائج إقامتها في بر الكويت وكذلك استطلاع آرائهم بالسبل التي يمكن بها حماية البيئة والحفاظ عليها، ولا أدري ماذا تم إذ لم يحدث من جانبي تتبع لها.

حسين:

شكراً لهذا الموجز، وكم أود أن أسترسل معك في الحديث عن موضوعات أخرى إلا أنني أرى أن نكتفي بهذا القدر هذه المرة وأختم هذا اللقاء بسؤالين أولهما: مَنْ بين الأنثروبولوجيين أو المتخصصين في العلوم الاجتماعية أو المفكرين عامة كان له أو لهم تأثير على توجهك الأكاديمي؟

دونالد:

عندما كنت طالباً في جامعة أوستن، ولاية تكساس تأثرت بالأنثروبولوجي «ريتشارد آدمز» (Richard Adams)، وكان أحد رواد العمل الحقلي في أمريكا اللاتينية، وكان يدعو الأنثروبولوجيون إلى عدم الاقتصار في دراساتهم على المجتمعات المحلية والدراسات القروية كما كان شائعاً حينذاك، بل عليهم أيضاً التوجه لدراسة المجتمعات المركبة، وكنت وقتها أدرس اللغة الأسبانية وآدابها،

وعندما توجهت إلى جامعة كاليفورنيا للدراسات العليا التحقت بقسم الأنثروبولوجيا وفي الذهن أداء دراستي الحقلية في أمريكا اللاتينية، إلا أنه كان لمشرفتي الأكاديمية الدكتورة لورا نادر Laura Nader تأثير كبير في تحويل اتجاهي إلى الشرق الأوسط، والسعودية بصفة خاصة. وإلى جانب آدمز ونادر تأثرت أيضاً بكتابات البريطاني السير أدموند ليتش Sir Edmund Leach وهو من الأنثروبولوجيين الاجتماعيين الرواد، ومن فرنسا تأثرت بكتابات ليفي شتراوس Levi-Strauss، وهناك آخرون أذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر أيرك وولف Eric Wolf ومارفن هاريس Marvin Harris وطلال أسد Talal Asad وشاكر سليم Shaker Selim. والحقيقة أنني لست متأثراً بكل اتجاهات الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية، وأذكر من بينها مثلاً كتابات جيرتز وتوجهه المنهجي، فأنا أميل أكثر إلى الدراسات الخاصة بالاقتصاد السياسي والنظام العالمي والمجتمعات المركبة وارتباط ذلك بطبيعة الحال بالمستوى المحلي.

حسين:

هذه معلومات مفيدة في تتبع قراءة أبحاثك ومقالاتك ومعرفة الخط النظري والتوجه المنهجي الذي يشكل اهتماماتك البحثية وكتاباتك. والآن أوجه سؤالي الثاني والأخير، وهو سؤال تأملي إلى حد ما: كيف ترى تجربتك الأنثروبولوجية والحياتية في المنطقة لمدة تعدت الآن الثلاثين عاماً؟

دونالد:

لقد ذهبت لدراسة البدو في السعودية لأن الصحراء قد استهوتني كالرحالة القدامى، ولكني وجدتها تجربة مثيرة وفريدة بالنسبة لي. إن الشيء الذي اكتشفته في حياتي في الصحراء وأثر فيّ كثيراً هم البدو أنفسهم. لقد كانوا كرماء، ودودين، وفطنين، فلقد تعلمت منهم كثيراً عن مجتمعهم، وحياتهم، ومعتقداتهم، وعن نفسي أيضاً. لقد أحببت الجَمل، وكم استمتعت بالاشتراك مع شباب البدو في تنقلاتهم ورعيهم للإبل، فالصحراء لا تمثل بالنسبة لي مكاناً موحشاً ومَعْزلاً، بل إنه مكان مليء بالروابط الاجتماعية والحركة والصُحبة. هذا من ناحية السعودية، ومن ناحية مصر فقد أتاحت لي فرصة العمل بالجامعة الأمريكية تحقيق رغبتي في دراسة طبيعة الحياة في مدينة عربية. وكنت أعتقد أنني سأمكث بالقاهرة لمدة محدودة إلا أن الأمر اختلف تماماً وأصبحت القاهرة مقري لمدة إحدى وثلاثين عاماً اليوم، فقد وجدت في القاهرة تسامحاً كبيراً للأجنبي وحرية له أيضاً، ولدي في القاهرة

أصدقاء، ومعارف، وزملاء، بل أُسَرٌ أيضاً، ولم تعد القاهرة بالنسبة لي مكاناً للدراسة الأنثروبولوجية كما كنت أعتزم في البداية وإنما هي المكان الذي أعيش فيه وأستمتع به. ودعني أوجز فأقول إذا كانت السعودية هي المكان الذي تم فيه تطبيعي عربياً، فإن مصر هي المكان الذي اتخذت منه وطناً.

حسين:

مشاعر طيبة ولا شك، ولا يسعني إلا أن أشكرك على هذا اللقاء. فلقد كان لقاؤنا اليومي تقريباً عبر البريد الإلكتروني فرصة طيبة لاستمرار الحوار بيننا وتدعيم صلاتنا وتوجهنا المشترك لخدمة الثقافة والمعرفة.

دونالد:

شكراً لك يا حسين... لقد كانت تجربة جديدة بالنسبة لي أن أجري حواراً على هذا المستوى عبر الرسائل الإلكترونية. وأشكرك خاصة على أسئلتك المُتبصِّرة وما ضمنته أيضاً من معلومات شائقة، فلقد أثارت هذه الأسئلة عديداً من الموضوعات المهمة والقضايا الملحّة، وأشعر أن بعض إجاباتي لم تكن تفصيلية على النحو الذي كنت أتمناه، إلا أنني آمل - إن شاء الله - تتبعها في مناقشات أخرى موسعة، وأود أن أُعَبِّر أيضاً عن شكري وتقديري لمجلة العلوم الاجتماعية لعقد هذا اللقاء الفكري بيننا، وإنه لشرف عظيم لي أن يتم نشره بالمجلة.

